

طلاب الماجستير : شعبة الصحة النفسية

مقرر : النمو الإنساني مدى الحياه

المحاضرة : الخامسة

النظريات التفسيرية لتوافق المسنين

أ – نظرية النشاط للمسنين : هفجهرست والبرت

إن أول وجهة نظر يمكن تسميتها بنظرية النشاط للمسنين • وتلك هي نظرية " الحس العام " أو نظرية غير المتخصصين ، طالما أنها تعكس تلك التوقعات التي غالبا ما تظهر في أعمدة الصحف الأمريكية ، من قبيل العمر الذهبي والبرامج التشريعية الخاصة بالمسنين ، ولتذكر أن جوهان جونسون JOHhan johnson وهو الجد البالغ من العمر ثلاثة وسبعين عاما قال : أن هدفه الحقيقي الوحيد انما ينحصر في أن يظل نشطا " أريد أن استمر حتى ابلي ، لا أن يصيبي التقاعد بالصدأ •

فان وجهة النظر هذه يمكن تلخيصها في هذه العبارة " استمر نشطا keep active •

إن المجتمع الأمريكي يرغب ويتوقع قدرا كبيرا من النشاط والاستقلالية من مسنيه ••• نريدهم أن يكونوا نشطين بشكل معتدل • نحن لا نريد منهم أن يعزلوا أنفسهم وأن يعيشوا كالنبات حياة البلادة والخمول •

إن نظرية النشاط تذهب إلي أن العلاقة ما بين النسق الاجتماعي والنسق الشخصي ينبغي أن تظل مستقره بشكل معتدل عندما ينتقل الفرد من مكانته الاجتماعية التي كانت له في منتصف العمر إلي مكانته الاجتماعية في الشيخوخة • إن المعايير التي تقع علي عاتقه لا تتغير بشكل ملحوظ ، فما زال المجتمع ينتظر من المسن أن يفعل الكثير كما فعل في سنوات منتصف العمر • مع استثناء قوامه التسليم بأن من حقه ألا يعمل (سياتن رغب في ذلك أو لم يرغب) وان توقع منه المجتمع أن يبسط بعض الشيء • وعندما تذهب عن السن بعض أدواره ، كما يحدث بالإحالة إلى المعاش ، أو فقدان بعض الأصدقاء أو شريكه الحياة فإن المجتمع يتوقع منه أن يقوم بتعويض ذلك بالزيادة من نشاطه في مجالات أخرى ، أو بتوثيق علاقاته مع أشخاص آخرين •

إن ما يحدث في هذه الحالة يذكرنا كما قال مخيمر بما يتحتم على الفرد عندما يصاب بالعمى من إعادة انتظام لحياته بحيث يقيمه استنادا إلى أربعة حواس بعد أن كانت مستندة إلى

خمس حواس • فإعادة الانتظام هذه تترك شخصيته على ما كانت عليه وان تبدلت وسائله ومجالات حياته من حيث ترتيبها الدرجي ، ولكن الأمر هنا يقتصر على إعادة الانتظام ضمن الوحدة الكلية الحالية لمجالات حياته دون ما اعتبار للوحدة الكلية الزمنية التي تمتد في العالم الاخرى •

وهكذا فإن مصادر الرضا عند الشيخ وتصوره عن ذاته وأسلوب حياته – ليس لها بحسب هذه النظرية في نظر المجتمع أن تتغير كثيرا عما كانت عليه في سنوات منتصف العمر •

ومثل هذا الحديث من جانب هفجهرست والبرت في رأي مخيمر ينطوي بلا شك على مبالغة ، فليست العبرة بأن تظل مصادر الرضا على ما هي عليه ، بل لها أن تتغير وتنتقل إلى مجالات أخرى طالما أن الحصيلة النهائية هي الرضا، وكذلك الحال بالنسبة إلى أسلوب الحياة ، وتصوره عن ذاته ، فتلك حتمية تفرضها واقعية المسن عليه • ولكل عمر كما يقال حلاوته الخاصة وليس لحلاوة الشيخوخة أن تكون كما يدعى هفجهرست والبرت بحيث لا تختلف كثيرا عن حلاوة سنوات منتصف العمر ، عندما تخلي الاندفاعية والتهور المسرح للكثير من التروي والنضج مع الشيخوخة •

ومهما يكن من أمر فان هفجهرست والبرت يعودان إلى الحديث عن هذا التوقع الذي يوجد في أمريكا (على ما يبدو) واللذان يذهبان إلى أن المجتمع الكبير يتحتم عليه أن يجيب علي هذه الاستمرارية للحاجه إلي النشاط عند المسنين ، وذلك بتنظيم بعض جنبات البيئة (من قبيل مراكز العمر الذهبي ، وبيوت الرعاية) بحيث يشجع المسنين على التفاعل والاختلاط بعيدا عن العزلة والانحباس في الانطوائية • ولكنهما يقررا أن احتياجات أخرى كثيرة للمسنين ما تزال تحظى بالتجاهل في أمريكا (من قبيل وسائل الانتقال التي تمكن المسن الأوربي من أن ينتقل في يسر ومن قبيل الأماكن التي تقام فيها المستشفيات ، والمراكز الصحية ، بحيث تكون أعظم ما يمكن انفتاحا للمسنين من الناحية الاقتصادية ، وذلك بدلا من إقامتها في أماكن تجمعات المسنين) • وباختصار فعلي الرغم من حدوث بعض التغير للنسق الشخصي عندما يتقدم العمر بالأفراد إلي الشيخوخة فإنها تقلل من أهمية الحاجة إلي تغيرات واسعة ألمدي •

وغني عن البيان أن مثل هذه النظرية للنشاط عن المسنين تتجاهل بديهيه من بديهيات علم النفس ، لأنها كما يقول مخيمر تريد الاستمرارية لما يستحيل أن يستمر ، فالنسق الفردي باحتياجاته في سنوات منتصف العمر يختلف تماما عما يمكن أن يكون عليه ، أو يصير إليه مع سنوات الشيخوخة ، ومن ضرورة إعادة انتظام حياة المسن بحيث تجيب علي مطالبه في الهنا والآن وهذا هو الذي دفع كيبيرز وبنجتسون kuypers and pengtson إلي القول بأننا في نظرية النشاط هذه عن المسنين نستطيع أن نري بصمات الأخلاقيات الخاصة بالفلسفة الفردية الأمريكية الصارمة .

إن نظرية النشاط للمسنين قد ظلت كما في راي بنجتسون مجموعة من الافتراضات أكثر منها نظرية صريحة وقابلة للتثبت من صحتها . ومع ذلك فقد تمت محاولة واحدة لتحديد القضايا الرئيسية لهذه النظرية ، والتثبت من صحتها : ففي عام ١٩٧٢ قام ليمون lemon وبنجسون ، وباترسون Peterson بعزل ما يبدو قضيتين مركزيتين في نظرية النشاط:-

القضية الأولى : تنحصر في وجود علاقة موجبة ما بين النشاط الاجتماعي والرضا عن الحياة في الشيخوخة (استنادا إلي أن القيام بدور في النشاط الاجتماعي يرتبط بتصور موجب عن الذات) .

القضية الثانية : فتقرر بان فقدان دور بارز (من قبيل الترمل والإحالة إلي المعاش) إنما يرتبط ارتباطا سالباً بالرضا عن الحياة .

ولكن معطيات هذه الدراسة لم تؤيد هاتين القضيتين ، بل اتضح فقط أن النشاط الاجتماعي مع الأصدقاء هو الذي كشف عن ارتباطه مع الرضا عن الحياة . وباختصار فان هذه الدراسة تشير تساؤلات خطره فيما يتصل بكفاية نظرية النشاط للمسنين، فلا يبدو أن الإبقاء علي مستويات عالية من النشاط يرتبط بالشيخوخة الناجحة وذلك علي الرغم من ميلنا إلي افتراض هذا الارتباط في تخطيطنا البرامج للمسنين .

وفي كلمات فان نظرية النشاط هي تعبير عن أمل ، وترجمة عن هدف يتطلع إليه المجتمع الأمريكي دون أن تكون نظرية تفسيرية للواقع المعاش للمسنين .

ب- نظرية فك الارتباط : كامنج وهنري

وتمثل نظرية فك الارتباط للشيخوخة منظورا مختلفا تماما . وتذهب هذه النظرية إلى أن الشيخوخة تبدو علي أنها عملية فك ارتباط حتمي ومتبادل ما بين الفرد والمجتمع . فالفرد ينسحب بشكل تدريجي اجتماعيا وسيكولوجيا من بيئته بقدر ما يمكن في الشيخوخة . ومن أعظم ما يكون أهمية أن عملية الانسحاب التي تقول بها النظرية تحقق الرضا بشكل متبادل ما بين الفرد والمجتمع ، فبالنسبة إلى الفرد فإن هذا الانسحاب يتيح له التحرر من الضغوط الاجتماعية للاداءات الآلية التي ترهق بدنه الأخذ في الضعف . أما بالنسبة إلى المجتمع فإن الانسحاب يسمح للأفراد الأصغر سنا (الذين يفترض أنهم أكثر حيوية وكفاءة) إن يضطلعوا بالأدوار الوظيفية التي يتحتم القيام بها الاستمرار النسق الاجتماعي ، وقد قدم كامنج وهنري من المعطيات ما يشير إلى وجود تناقص يمكن قياسه لارتباط الفرد السيكولوجي أو انشباك الذات *ego-involvement* في البيئة الخارجية . وقد قاما بتأويل معطياتها بحيث أصبحت تفيد بأن المستوي المنخفض من "الارتباط الاجتماعي وانشباك الذات في العالم الخارجي،" يرتبط بمستوي عال من " الصحة النفسية " *WELL- BEING* او كما يعرفانها " مستوي عال من المعنوية " .

ويقرر بنجتسون أن الإسهام المركزي لنظرية فك الارتباط إنما ينحصر في محاولتها بيان العلاقة المتبادلة ما بين التغيرات السيكولوجية والتغيرات الاجتماعية في الشيخوخة وأكثر من ذلك فإن نظرية فك الارتباط هذه تلح بالأهمية علي الطابع الفارقي النمائي للشيخوخة . فنظرية فك الارتباط تذهب إلى أن الشيخوخة مختلفة عن سنوات منتصف العمر لأنها تتميز بتحويلات أساسية بارزة . وأخيرا فإنها تتميز بتوازن جديد بين القوي ، وذلك في النسقين الشخصي والاجتماعي ، فمنابع الإحساس بالراحة والسعادة " الصحة النفسية " تختلف في الشيخوخة مثلا اختلافا كبيرا مما كانت عليه في سنوات منتصف العمر عندما كانت أكثر توقفا علي العلاقات المستمرة المتصلة وجها لوجه مع الآخرين في البيئة الاجتماعية . وبشكل مماثل فإن هناك اختلافا من حيث القدر الذي تنقل به المعايير والقيم علي عاتق الفرد الذي يعتبر سببا للسلوك ، فالتوقعات التي يتوقعها المجتمع من المسنين هي اقل بروزا بكثير . وباختصار فإن هذه

النظرية توضح وجود تغير مع الشيخوخة في التوازن ما بين النسقين الشخصي والاجتماعي •
وعليه فنظرية فك الارتباط هي في تعارض مع نظرية النشاط • إنها تمثل محاولة فريدة لتحقيق
التكامل بين الكشوف الخاصة بالظواهر الاجتماعية والسيكولوجية في الشيخوخة، ولتفسير
الشيخوخة الناجحة ، ولتقرير بعض الشروط المرتبطة بالسعادة في الشيخوخة • ولكن ما مدي
ما أصابته هذه النظرية من نجاح أو إخفاق في البحوث اللاحقة التي اوجت بها هذه النظرية ؟ •

ففي السنوات القليلة الأخيرة أصبحت نظرية فك الارتباط مركزا وبؤرة للمناقشة والبحث
عن عملية التشيخ (الدخول في الشيخوخة والمضي فيها) • وعلي الرغم مما تحظي به من
تقبل عام فكرة وجود تناقص في إجمالي النشاط الاجتماعي مع التشيخ فقد كان هناك عدم اتفاق
هائل مع القضية التي مؤداها (أن فك الارتباط الاجتماعي هذا ، عليه محتومة أو مكتملة
العمومية ، وان هناك علاقة عكسية في الشيخوخة ما بين النشاط والرضا عن الحياة •

علي سبيل المثال فان كوتنر kutner يذهب إلي وجود إعادة تكامل وإعادة تمايز "re-
integration and re differentiation للنشاط المستمر في الأدوار الاجتماعية ، أكثر
من وجود تناقص شبه عام ومحتوم مع الشيخوخة ، وعن طريق التعميم (أي الامتداد بما قاله
كوتنر) يمكن القول بان العوامل الاجتماعية لا البيولوجية هي التي تكون أعظم بروزا في هذه
العملية (التشيخ) • معني هذا إن التقيدات التي تفرضها أحداث النمو علي استجابة النسق
الاجتماعي ، واستجابة النسق الفردي لهذه التغيرات ، إنما هي التي تحدد فك الارتباط لا
العوامل الفسيولوجية ، ولا هي بشكل يستبعد العوامل النفسية • داخل الجهاز النفسي وفي تقديمه
المعطيات التي حصل عليها من دراسة طولية يخلص مادوكس Maddox عام ١٩٦٣ إلي
وجود علاقة موجبه ما بين النشاط " والمعنويه " أكثر من وجود عكس ذلك علي النحو الذي
تتضمنه نظرية فك الارتباط • وفي الواقع إن التحليلات اللاحقة للمعطيات من دراسة كانسس
سيتي Kansas city لحياة الرشد ، قد أدت بزملاء كامنج وهنري إلي القول بأن النموذج
الأمثل يبدو اقرب ما يكون إلي اشتباك عال (أي نشاط عال) ورضا عن الحياة عال " منه إلي
" اشتباك منخفض (أي نشاط منخفض) ورضا عن الحياة عال " وهذا الأنموذج الأمثل قد
اتضح أيضا في دراسة الشرائح المستعرضة القومية للتقاعد •

وربما يكون المؤشر الأعظم وضوحا لمحدودية النظرتين أي قصورهما (نظرية النشاط ونظرية فك الارتباط عن المسنين) ، هو ما نستنتجه من أعمال هفجهرست ونوجارتون Sanel علي نماذج الشيخوخة patterns of aging ففي هذه الأعمال يتضح بشكل قاطع إن هذا النموذج أو ذلك لا يقدم تفسيراً للعلاقة الامبيريقية ما بين النشاط الاجتماعي ، وأنماط الشخصية ، والشعور النفسي بالرضا .

إن الناس وهم يشيخون لا بد وإنهم تحت رحمة البيئة الاجتماعية ، ولا تحت رحمة سلسلة بعينها من العمليات الداخلية الصميمة intrinsic ، فلو أخذنا بهذه الحالة أو تلك لكانت هذه التغيرات من التصلب والعناد بحيث يستحيل علي المسنين التأثير فيها وعلي العكس من ذلك فان الفرد يبدو مستمرا في فرض " بصمته الخاصة " • own impress علي هذا المدي الفسيح من التغيرات الاجتماعية والبيولوجية • فالفرد يستمر في ممارسة اختياره وانتقائه من البيئة في مساندة لحاجاته التي استقرت منذ أمد بعيد • فالفرد في رأي نيوجارتون Neugarten يعيش شيخوخته تبعا لا نموذج طال تاريخه ، تبعا لاتزان يبقي علي نفسه ضد كل تغير وان تكيف لمقتضيات كل مرحلة ، ومن ثم أيضا لمقتضيات نهاية الحياة • (٦٣ : ٤٥) •

فليست هناك شيخوخة للجميع ، بل شيخوخة هذا المسن او ذاك التي تحمل بصمته الشخصية ، وتترجم عن اتزانه الفريد وبذلك يكون الطفل هو أب المسن كما سبق قوله •